

القديس اغناطيوس ده لويولا (١٤٩١ - ١٥٥٦)

ورهبانيته اليسوعية

بقلم الاب رفايل غنله اليسوعي

في كل انحاء العالم تحتفل الرهبانية اليسوعية هذه السنة احتفالاً عظيماً بمرور اربمئة سنة على وفاة مؤسسها القديس اغناطيوس ده لويولا ، الذي قد زار مسقط رأسه في شهري آب وتشرين الاول من العام الماضي نحو مئة وخمسين الف زائر . وايم الحقى كان من اعظم اولياء الله تعالى . بسر فضائله وبالخير الكبير الذي صنعه الى ملايين البشر ، بذاته وبواسطة ربات اتباعه اليسوعيين ، المنتشرين منذ اربعة قرون في اصقاع العالم ، من مشاركته الى مقاربه . العظام نوعان : منهم من يشبه المذئب ، الذي يشق عنان السماء . بسهم ساطع من ضيائه ، ثم يغيب عن الانتظار والقلوب . ومنهم من ضارع الشمس التي لا تزال ، منذ برأها الإله القدير ، تضي . وتُنمش مليارات الناس وسائر الكائنات الحية . ولا مرا . في كون مؤسس رهبانيتنا رجلاً عظيماً من هذا النوع الثاني .

كان سليل عائلة شريفة ، وقد وُلد سنة ١٤٩١ في قصر لويولا (Loyola) ، وهي بلدة صغيرة ، واقعة في شمال اسبانية ، في قسم تلك البلاد الذي يسكنه البسكيون ، وهم قوم يحراب باسل ، ابلى بلاء حثاً في مقاتلة غزاته ، وهو يتكلم حتى الآن بلغة مجهولة الاصل ، لا شبه بينها وبين سائر لغات اوربة ؛ وقد ورث اغناطيوس غزمه الفولاذي وعلو نفسه من اجداده النبلاء . سنة ١٥٢١ ، وهو ضابط في جيش نائب ملك نافارة ، دافع في ارجح المواقف دفاع الابطال عن قلعة مدينة بياونة (Pamplona) التي حاصرها الجنود الفرنسيون ، فأصيب بجرح ثقيل ، ونُقل الى قصر اسرته ، حيث تحتم عليه ان ياتزم الفراش اشهرًا عديدة ؛ في تلك الآونة اشدت عليه وطأة البطالة والضجر ، فطلب من اهله روايات غرامية يسلو بها مضيقته الفادحة ، واذا لم يجدوا شيئاً منها ، اتوه بحياة السيد المسيح وبسير القديسين .

اول وهلة نفر اشد النفر من تلك المطالعة ، لانه كان خاطئاً قد تمرغ الى ذلك الوقت في حمأة المعاصي . بيد ان روحه السامية وعقله الثاقب ما لبثا ان اكتشفا في فضائل منات القديسين المثل الاعلى للبطولة العليا التي تكبح على الدوام جماح الذ الشهوات السافلة ، ولا سيما الكبرياء والمهارة ، بل تسحقها -حقاً- فتحرر من نيرها المذل وتتمكن من الارتقا. الى ذرى الحب الكامل لله تعالى وللانسان المخلوق على صورته .

قصد اغناطيوس بهته القضا. ان يخذو حذو القديسين ، فنجح العالم ومجده الزائل وملاذاته الباطلة ، واختلى نحو سنة في مغارة ، ببلدة منربسة (Manresa) ، عاكفاً على الصلاة والتأمل والتكفير عن خطاياہ بانواع التقشف الهائل . على ذلك الوجه جرى شوطاً رائماً في طريق الفضيلة الوعر . لكن مزونته من العلم كانت زهيدة ، فرضي بجالة التلاميذ الصغار في مدرسة ابتدائية ، لدرس اللغة اللاتينية ، ثم اكب على درس الفللفة واللاهوت في وطنه ، وبعدئذ في كلية باريس من سنة ١٥٢٨ الى ١٥٣٥ . في ذاك المههد الشهير اختارته من الطلاب المبرزين مثله في الفضيلة والعلم ، ليؤازروه طول حياتهم على تمجيد الله وتقديس النفوس ، ثم انضوى اليهم عشرات من اندادهم ، فنشأت الرهبانية اليسوعية سنة ١٥٤٠ .

القديس اغناطيوس قد ابتكر نوعاً جديداً من الحياة الرهبانية . لم يعين لرهبانه ثوباً مختصاً بهم ، واعفى الكهننة من التلاوة الجمهورية لاصولوات التي تفرضها الكنيسة عليهم ، لانها تحول دون القيام السريع بانواع الخدم للتقريب . اعفاهم ايضاً من الاقامة الدائمة في الدير ، ومن التقشف الشديد ، المانع انضواء آلاف من ذري الصفة المتوسطة الى رهبانيته . فضلاً عن ذلك لم يحصر سعي اتباعه في نطاق ضيق من الاعمال ، بل وسع ميدانه الى الدرجة القصوى ، في كل ما يؤول الى تمجيد الله تعالى وخير البشر . كانت رهبانيتنا حين نشأتها مزلفة من سبعة اعضاء . ذري ثقافة عالية ، دينية وعلية . نفوذ اولئك التوابغ وسمر قداستهم ، ومن جهة اخرى مرونة قوانينهم قد ادت الى سرعة انتشار رهبانيتهم ، فصار ابناءؤها نحو الف ، في كل انحاء العالم ، من اليابان الى اميركة الجنوبية حين وفاة مؤسسها سنة ١٥٥٦ ، بعد انقضاء ستة عشر عاماً فقط منذ انشائها . في اواخر السنة الماضية كانوا ٣٢٨٩٩ ، وهو اكبر عدد في رهبانيات

الرجال^{١١} . لا يجاري الولايات المتحدة قطار من اقطار العالم في كثرة اليسوعيين ، فقد كان منهم فيها ٧٧٥١ العام الماضي .

قلت ان مؤسنا قد وضع قوانين رهبانية مبتكرة ، تضمن لجميع ابناؤه ادراك اوج الكمال في خدمة الله والبشر ، ومن اوضح البراهين على عبقرية انه لم يحدث ، بعد اختبار اربمئة سنة ، ادنى تغير جوهرى في تلك القوانين التي عليها طابع حكمة الهية محضة وقد اقتبس زبدتها عشرات من الرهبانيات الحديثة - وأن كل اليسوعيين الدائمين على التقيد بها قد بلغوا ذروة الكمال .
حان لي ان اقدم للقراء حفنة من كتيب مآثرهم في اكبر ميادين صميمهم ، معتزداً عن كون الموضوع يضطريني الى تعظيمهم ، وراجياً ان ينسبوا جميع تلك المحامد الى الله - عز وجل - لانه مصدرها الوحيد .

الغاية الاولى التي رعى اليها مؤسنا القيود هي ان يكون ابناؤه قديسين ، وقد تم ذلك بدرجات متباينة في كثير منهم ، واصبحت رهبانيته حديقة غناء ، مزدانة بأجمل زهور القداسة الرائحة النورع . سنة ١٩٥٤ كانت قد انجبت رهبانيتنا ، بيه تعالى ، من ابطال الفضيحة الذين حُقت مآثرهم السامية والمجزات التي صنعوها بعد موتهم ادق التحقيق ، سبعة وعشرين قديساً ١٣٩ طوبواً . ما عدا اولياء الله اولئك الذين يسرغ ان نسميهم رسميين ، قد امتاز عندنا بالقداسة آلاف مؤلفة غيرهم ، وقد نُشر ملخص سير نحو عشرة آلاف منهم في عدة مجلدات ضخمة .

اما عدد شهدائنا الذين سفكوا طوعاً دماءهم النقية ، في سبيل السيد المسيح ، فهم نحو الف .

من الواضح ان في مقدمة الاشغال المفروضة على رهباننا تقديس النفوس . وقد دل الاحصاء - وهو ناقص جداً لاستعالة اجرائه في ثمانية بلاد شيوعية - ان في سنة ١٩٥٤ قد اتى اليسوعيون للتعليم المسيحي ٦١٨٠٠٠ مرة ، فضلاً عن ٥٦٤٠٠٠ موعظة ونحو ١٩٥٠٠ رياضة ، وكل رياضة سلسلة عظات تدرج من ثلاثة ايام الى شهر ، وفقاً للظروف ، وقد حضر تلك الرياضات ٩٦٩٠٠٠ شخص .

١١ من اولئك اليسوعيين ١٦٥٢١ كاهناً و ١٠٧٦٤ شخصاً مستمداً للكهنوت و ٥٦٣٧ اخاً قائماً بالاشغال البدوية .

ونيد. رهباننا لا يكتفون بالقاء المراءظ في الكنائس والاديار والمدارس ، بل حينما تسمى لهم المنازها ، حتى في السجون . الاسبانين منهم قد اعتادوا ان يعظوا ستة ايام متواليه في الماطل والمناجم ، وقد سمع مواعظهم ، سنة ١٩٥٠ ، ٢٧٠٠٠ عامل ونيف ، في ٥٦ معالاً .

لنا ايضاً في الحما. العالم ، عدد كبير من معاهد مختصة بالرياضات الاختلاية ، يتعني فيها من ثلاثة ايام الى شهر ، في الصمت الكامل جواهر متتابعة من الكاثوليك ، لسمع المراءظ والتأمل في مواضعها . كان لنا سنة ١٩٢٧ مئة واربعة من تلك المعاهد ، وقد ارتاض فيها عامنذ ٦٨٠٠٠٠ شخص ونيف .

اليسوعيون اينما كانوا ، دائبون على توزيع الاسرار المقدسة . سنة ١٩٥٤ عمداً ٢٠٢٤١٣٧ شخصاً ، واعدوا لاول تناول ١٢٢٤٣٨٤ ، وكان عدد المناوات في كنانهم ٥٩٤٨٩٣٤٠٠٠ .

في السنة ذاتها كان من اجمل اثار خدمه: للنفوس اهتداً ٣٦٤٥٠٦ اشخاص بالدين .

اراد مؤسنا ان تكون الفضيلة والعلم في رهبانته توأمين متلازمين ؛ وذا بدع بذلك ، فان العلم يزيد سطوع الفضيلة وتوق الناس الى الاقتداء بها ، وهو ايضاً في مقدمة العوامل للترقى الادبي والمادي . لذلك قد فرض القديس اغناطيوس على جميع ابنايه المستعدين للكهنوت تسعة اعوام دراسة عالية ، منها اثنان للغات والآداب ، وثلاثة للفلسفة واربعة للاهوت . علاوة على تلك الثقافة العامة ، يسهل على ذوي المواهب الخاصة منهم التعمق والنبوغ في جميع فروع العلوم والآداب والفنون الجميلة ، ويثير همهم على التأليف المبكر فيها . قد نزل اليسوعيون عند رغبته منذ نشأتهم الى ايامنا ، فكانوا ينشرون ، سنة ١٩٤٠ ، ٦٨٥ مجلة دينية او علمية او ادبية .

فضلاً عن ذلك قد وضع رهباننا آلاف الكتب في كل انواع العلوم الدينية وغيرها ، وفي ضروب الآداب نثراً وشمراً ، بل في الفنون الجميلة . الاب شرل زومرفوجل (Sommer Vogel) اليسوعي قد نشر ، بين سنتي ١٨٩١ و ١٩٠٠ ، تسعة مجلدات كبيرة الحجم ، حاوية اسما. احد عشر الف كاتب يسوعي ، وذكر مصنقات كل منهم . منذ سنة ١٩٠٠ قد ظهرت عدة كتب لتكملة جدول الاب المشار اليه .

اما كبار العلماء والادباء والفنانين ، فانهم يحصون عندنا بالئات ، فاكتفي
بذكر عدد قليل منهم .

من نوابغ علم الرياضيات الاب البلجيكي غريغوريوس للقديس منصور
(١٦٦٧+) ، وله اكتشافات خظيرة في ذلك العلم ، وهو من مؤسسي الهندسة
التحليلية (Géométrie analytique) .

الفلكيون العظام . كثيرون ؛ هاكم شيئاً يسيراً من آثارهم .
الاب كريستوف شينر (Scheiner) (١٦٥٠+) قد اكتشف رابطة وظيفة شبكية
العين الضرورية للبصر . هو من مؤسسي علم فيزياء الشمس ومكتشف سفها ،
اي ما يفشاها من البقع السوداء ، واول مفتر لسيها ، هو مخترع الهليوسكوب
(Helioscope) ، يعني المنظار ذا زجاج مسود او ملون لرصد الشمس . قد اخترع
ايضاً البنتغراف (Pantographe) ، وهو آلة تنقل كل الرسوم على وجه ميكانيكي .
الاب حنا ريتشولي (Riccioli) (١٦٧١+) الايطالي كان اول المنتبين عن
اسباب السمع القمرية .

الاب زسوكي (Zucchi) هو مخترع المرقب ذي مرآة .
الاب فرنسيس گرميلدي (Grimaldi) (١٦٦٣+) الايطالي قد اشتهر بانجانه
عن القمر وباكتشافه انحراف (diffraction) النور .
الاب شرل برون (Braun) لم يجارده تجار في تحديد وزن الكرة الارضية
على ادق اسلوب .

الاب تسوبي (Zupi) قد اكتشف ادوار اليارة عطارد .
الاب نقولا سارابا (Sarrabat) (١٧٣٧+) الفرنسي مكتشف اول مذنب
مرقب ، يعني اول مذنب لا يرى بالعين المجردة بل بالمرقب وقد اخترع عدة
آلات ميكانيكية .

الاب كريستيان ماير (Mayer) (١٧٨٣+) ، مكتشف النجوم المزدوجة .
النجمتان المزدوجتان ١٥ اللتان تدوران حول مركز ثقلها المشترك .
الاب كريستوف (Clavius) (١٦١٢+) الالماني قد ساعد البابا غريغوريوس
الثالث عشر على اصطلاح حساب الستين .

الاب انجلو سيكي (Angelo Secchi) (١٨٧٨+) الايطالي مشهور بؤلفاته على

تركيب الشمس ، وكان اعظم الاختصاصيين المعاصرين في تحليل طيفها ، وقد اخترع المتيوروجراف (météorographe) ، وهو الجهاز المسجل تغير الاحوال الجوية .
الاب غليوم ستين (Stein) (١٩٥١) الهولندي ، كان مدير مرصد الفاتيكان الفلكي ، وقد اشتمل ثلاثين عاماً ، بمساعدة فريق من اشهر الفلكيين ، لتأليف جدول النجوم في احد عشر مجلداً . ذلك الجدول يحتوي الصور الشمسية وتعيين الاقضية والحركات لأكثر من ٥٥٥,٠٠٠ نجمة ، وقد عده العلماء كتاباً اساسياً في علم النجوم .

حول سنة ١٩٥٠ اكتشف فلكيان يسوعيان يشغلان في مرصد الفاتيكان مذنباً ، فسُمي باسميهما مذنب لكليير وميلر (Leclaire-Miller) ، واكتشف الاخ تيمرس (Timmers) اليسوعي من ذلك المرصد مذنباً آخر ، فوسم باسمه .
من اعظم خدمتنا للعلم ان لنا عدداً كبيراً من مراصد الاحوال الفلكية والجوية ، في أنحاء العالم . من اشهرها اثنان في مانيلية وفي مدينة زيكاو (Zikawé) الصينية ، وهما يجردان وقت هبوب الاعاصير التي فيها خطر شديد على الملاحة في المحيطين الهادى . والهندي ، ويمينان ايضاً وجهتها ودرجة شدتها . قد عرف مرصد زيكاو حدوث الف إعصار ونيف ، فخلص مئات آلاف البشر من شرورها . يجدر في هذا المقام ذكر مرصدنا في كساره بلبان .

الاب شرل پواسون (Poisson) ، مدير مرصد تناناريف في جزيرة مدغسكر ، قد نال حول سنة ١٩٣١ من محفل العلوم المتحفة بالمتصرات ، في باريس ، مكافأة على كتابه في شأن المعرفة السابقة للاعاصير الحادثة في النصف الجنوبي من الكرة الارضية .

الاب راميرس (Ramirez) اكتشف طريقة لمعرفة مركز العواصف البحرية ، فوق الملاحة من اخطار هائلة ، وقد جنى اسطول الولايات المتحدة اجل الفوائد من ذلك الاكتشاف في الحرب العالمية الثانية .

الاب يعقوب ماسلوان قد انتخب حول سنة ١٩٢٨ مديراً لجمعية مراصد الزلازل ، التي كان لها عامتها في الولايات المتحدة مئة واثنان وثلاثون من تلك المراصد .

الاب اونوره فبري (Fabri) (١٦٨٨) الفرنسي قد اكتشف دوران الدم في الجسم .

الاب يوسف إكهل (Eckhel) († ١٧٩٢) النسي هو مؤسس علم المسكوكات القديمة على اساس علي .

الاب تيار ده شردان (Teilhard de Chardin) († ١٩٥٥) من اعظم العلماء في الجيولوجية وعلم اصل الانسان . كان من اعضاء محفل العلوم الباريبي ، وقد فاز بجائزة من اكبر جواتره مكافأة لاكتشافاته الخطيرة إبان الحفريات التي قام بها في الشرق الاقصى .

الاب اس يوهنس (Johanns) († ١٩٥٥) البلجيكي قد اشتهر بتمتته في درس الفلسفة امس . ألف ستة كتب عليها . في شرح شبابه ، حين فحص اسانذة جامعة كبريدج (Cambridge) . حثف له في الفلسفة ، أعجبوا بعقريته اشد الإعجاب ، فصرحوا بان نابغة مثله لا يظهر في راحة واحدة في كل عصر . امأ مآثر التدوعين في ميدان اللغات ، فقد نوّه بها التثويون مراراً . دهباننا قد مهّدوا الطريق لدرس اللغة السنسكريتية ، وهي من اقدم لغات الهند ، ولهم قدب السبق في معرفة اللغة الصينية ، وقد ألّفوا اول القواميس وكتب القواعد لعدد كبير من السن القبائل المتوحشة .

هاكم الآن اسماء نوابغ آخرين من دهباننا في علوم غير المذكورة .

الاب بستيانس روتزنفل (Ronzewalle) († ١٩٣٧) قد منحتة الحكومة اللبنانية وسام الاستحقاق ذا الصف ، اقراراً بخدمه الجليلة لعلم الآثار الشرقية .

الاب هنري لامنس (Lammons) († ١٩٣٧) البلجيكي قد ذاعت شهرته في الحافقين بؤلفاته الرائمة على نشأة الدين الاسلامي وتاريخه .

الاب إريش وسمان (Erich Wassmann) († ١٩٣١) الالماني كان من اشهر نوابغ العالم في علمي النمل وغراتر الحيوانات .

الاب توت (Toth) المجري قد فاز حول سنة ١٩٢٩ بوسام من حكومة بلاده ، تعظيماً لكتابه على معادن الحجر ، وقد حظي بأعجاب العلماء الاختصاصيين .

الاب يعقوب مريكت (Marquette) († ١٦٧٥) الفرنسي قد اكتشف في الولايات المتحدة ، نهر ميسيسيبي (Mississippi) الذي طوله ٤٦٢٠ كيلومتراً .

الاب پانث (Paetz) كان اول الباحثين عن منبع النيل .

الاب مريتي (Martini) († ١٦٦١) ورققاؤه قد رسموا ادق مخططات في جيلهم

لبلاذ الصين ، وقد صرح الاختصاصيون بانه من اجل المآثر في علم الجغرافية .
الاب فرنسيس لانا (Lana) (١٦٨٧+) الايطالي قد اخترع اول منطاد .
اليسوعيون قد اكتشفوا فائدة الكينا لهلاج الحمى ، ومن ثم قد سُحيت ،
في اول عهد استعمالها ، مسحوق اليسوعيين . وقد وسعوا نطاق علم النبات
باكتشافهم عدداً كبيراً من النباتات .

الاب اتاناسيوس كيرشر (Kircher) (١٦٨٠+) قد اخترع المرآة المحرقة والفانوس
السحري والأرغن الرياضي .

الاب دشترنس (Decheverens) معاصرنا الفرنسي اخترع آلة ترسم بمبتدئ موضع
اجزائها ، آلافاً من ابداع الرسوم ، التي يعيا امهر الرسامين عن تصور اكثرها .
اماً اديارنا المشاهير فانهم يفوقون علماءنا بمددهم ، وقد اضافوا الى كنوز
الآداب اللاتينية واليونانية وعشرات من اشهر اللغات الحية جواهر نثرهم وفرائد
شعرهم . لا ينبغي ان احذركم عنهم ملياً ، فاجتري بذكر بعض الراحلين الذين
خلدوا اسماهم المحيطة في تاريخ لغة الضاد وآدابها ، واكثرهم من معاصرينا .

الاب لويس شيخو (١٩٢٧+) أسس مجلة المشرق سنة ١٨٩٨ ، وحرر معظم
مقالاتها ، واصل منها مدة ربع قرن خمسة وعشرين مجلداً ، يحتوي كل منها
نحو الف صفحة كبيرة . له فضلاً عن ذلك ، عشرات المؤلفات النفيسة ، ومن
اشهرها « مجالي الادب في حدائق الرب » في ستة اجزاء ، طُبِع بعضها ثلاثين
طبعة ، وقد اضاف اليها ثلاثة كتب حاوية الشرح اللازم لقطعها ومعلومات
كثيرة على مؤلفيها . من اجل مصنفاته ايضاً « علم الادب في الانشاء والمروض
والخطابة » ، « فقه اللغة » ، « النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية » ، « شعرا
النصرانية قبل الاسلام وبعده » ، « الآداب العربية في القرن التاسع عشر » .
هو الذي انشأ القم الشرقي من مكتبة كليتنا في بيروت ، وقد زار اكبر
مكاتب اوروبا ، وعانى مشاق اسفار بعيدة حتى الهند ، ليقتني او يبتاع نفس
الكتب والمخطوطات . قد منحه حكومة لبنان رسماً قالت في وثيقة اهدائه :
« قد خدم الاب شيخو لبنان خصوصاً وبلاد المشرق عموماً ، بما نشره من النأليف
عن تاريخها وآثارها وعلومها ، حتى بلغت مطبوعاته مئة وعشرين مجلداً ، فاستحق
شكر لبنان » .

الاب لويس معلوف (١٩١٦+) ادار جريدتنا البيروتية البشير ثلاثين سنة. قد ذاعت شهرته في العالم العربي وبين المستشرقين بتأليفه «المنجد»، وهو القاموس العربي المصور، المحتوي على صخر حججه، زبدة مواد اشهر المعاجم. صدرت طبعته الاولى سنة ١٩٠٨، ثم اضاف اليه المؤلف نحو ٣٥٠ صفحة في الطبعة الخامسة، وقد بلغ عدد النسخ المطبوعة منه حتى الآن مئة وخمسة وعشرين الفا. الاب انطون ص. ن. (١٩٤١+) قد نشر بمساعدة المستشرق الشهير اغسطس هفتر (Hafner)، كتاب «تعداد الغمام بين دفتيه مخطوطات نفيسة لاربعة من ائمة اللغويين العرب، ولم يكن احد قد عني قبلة بطبعتها. قد خدم المدارس اجل خدمة بطبعه «روايات الاغاني» في جزئين، اقتبس مرادها من كتاب الاغاني الذائع الصيت، لابي الفرج الأصبهاني، وقد ظهرت طبعتها الثالثة سنة ١٩٣٦. اما اشهر كتبه فهو ديوان الاخطل، شاعر بني أمية المسيحي، وقد نشره سنة ١٨٩١.

الاب خليل إده (١٩٤٢+) كان اخا اميل ده رئيس الجمهورية اللبنانية. قد ألف عدة روايات تمثيلية، ومن اشهرها السؤال. له ايضاً كتاب «القواعد الجلية في علم العربية» في ثلاثة اجزاء، وهو يمتاز بشدة الوضوح وحسن التنسيق. الاب دونا فرنيه (Donat Vermier) (١٩١٧+) الفرنسي قد ألف بالفرنسية كتابين ضخين، يحتويان لمحو الفصحى، على قواعد العربية، فضمن ذلك المؤلف، الذي هو نسيج وحده بين امثاله، ادق ما ذكره، حتى من شوارد لفتنا الكثيرة، اشهر النحاة القدماء. واخلافهم، ورتب مئات مواد الصرف والنحو والعروض ترتيباً رائعاً، فلم يترك زيادة لمستزيد. وقد صنف ايضاً عدة كتب عربية بلغة ائمة ادبائنا الاقدمين، مما يعجز عنه اعلى كتابنا المعاصرين كعياً.

الاب حنا بلو Belot (١٩٠٤+) الفرنسي قد بذل قصاره عشرات الاعوام، لتأليف اجود القواميس للفتين الفرنسية والعربية معاً. قاموسه العربي الفرنسي الكبير قد طبع ست عشرة طبعة؛ اما الصغير فخمسة عشرة طبعة، بلغ مجموع نسخها مئة الف. قاموسه الفرنسي العربي الكبير قد صدرت طبعة الثالثة سنة ١٩٥٢؛ اما الصغير فقد أعيد طبعه ثلاثاً وعشرين مرة. وقد انتشرت كل هذه المعاجم بين ابناء الضاد وآلاف المستشرقين في جميع انحاء العالم.

فضلاً عن كبار علمائنا وادبائنا الذين يُحصىون بالآلاف، قد نبغ كثير منا في الفنون الجميلة، ومن جملتهم بين المعاصرين الاخ بسكو (Besqueur) النحات الفرنسي الشهير، ومواطنه الاب يوسف كيرمان (Guillemain) صاحب المؤلفات الموسيقية الفاتنة.

اراد ابونا القديس اغناطيوس ان نمشد كنوز القداسة والطم لكبي نقفي بها الناس. والحال ان خير واسطة لارساخ الفضيلة في النفوس، بحيث تقوى على مقاومة وساوس الشيطان وعواصف الشهوات، هي تهذيب الانسان منذ طفولته، على اساس الدين الوطيد. من ثم وجب على اليسوعيين، يُميد نشأتهم، فتح مدارس عديدة في انحاء العالم. طريقةنا في تهذيب التلاميذ ليست مدعومة على المراقبة الشديدة وانواع القصاص الضيف، بل على تعريف الواجبات، وحث الارادة على تسميها اكراماً لله تعالى، مع التدريج في اطلاق حرية ممتدة للطلاب، بنسبة نحو قواهم الروحية والجسدية. اما اسلوب تعليمنا، فهو يرمي الى تثقيف كل قوى النفس، اعني العقل والارادة والشعور والمخيلة والذاكرة، في آن واحد، وفقاً لسن التلاميذ ومقدرتهم. فلا بد ان يكون اساسه تدريس اللغات ولا سيما الآداب التي تتعاون على صوغ جواهرها جميع قوى النفس. بخلاف ذلك، توسع العلوم، كالرياضيات والفيزياء والكيمياء وغيرها، نطاق العقل، وليس لها تأثير يُذكر في الارادة والشعور والمخيلة، فمن الصواب ان نمدد تدريسها تتمة ضرورية للتثقيف الكامل، لا اساساً له.

قد اتضح، بعد اختبار اربمئة سنة، ان طريقة تهذيبنا التلاميذ وتعليمهم هي المثلى، وقد شهد على ذلك آلاف الشهود الثقات غير الكاثوليك.

قال الاستاذ كورنر (Körner) البروتستاني في كتابه على تربيخ فن التثقيف، ان طريقته الطيبة قد نشأت مع مدارسنا الاولى.

حين زار حُسين كمال، سلطان مصر، مدرستنا الثانوية في القاهرة سنة ١٩١٦، قال لرئيسها: « هذه زيارتي الاولى لمدرستكم، لكنني اعرفها بواسطة الرجال الذين انجيتهم، وانا مُعجب بطريقة تعليمها الحياوية التهذيب الخُلقي والتثقيف العقلي.

خَلَقه الملك فؤاد الاول، قصد ترقية التهذيب في مدارس الحكومة التي

انشأها ، فقرأ نظام مدرستنا السابق ذكرها ، وقال لشخص من بطانته تخرج فيها : « أوضح لي كيف استطاع إلساتذة اليسوعيون ان يدركوا في التهذيب والتعليم ، ذلك المثل الاعلى الذي عجزت ، مع بذل كل جهدي ، عن ادراكه في مدارسنا » .

هاكم الآن بعض التفاصيل العامة والخاصة على مدارسنا :

سنة ١٩٤٠ كان ٣٥٠٠ يسوعي مشغولين في غير بلاد الرسالات ، بتدريس نحو ١٤٠,٠٠٠ تلميذ ، في خمس عشرة كلية و٢٢١ مدرسة ثانوية . في اوائل سنة ١٩٤٨ كان عدد تلاميذنا ، في كل اصقاع العالم ، نحو ثمانئة واربعين ألفاً . مدرستنا الثانوية في بنداد ، التي انشأها سنة ١٩٣٢ فريق من يسوعي الولايات المتحدة ، ليس فيها صفوف للتعليم الابتدائي . مع ذلك قد ضمت هذه السنة سبعة تلميذ ونيقاً ، ونحو ٣٥ في المئة منهم اولاد اعيان مسلمين . قد بلغ ذلك المعهد من النجاح الكامل في التهذيب والتعليم مبلغاً جعل حكومة العراق تهدي لهبقة ، في طرف العاصمة ، ارضاً مساحتها خمسة الف متر مربع ، بشرط ان يزوسوا عليها جامعة توازر جامعة الدولة في نشر العلوم العالية . من جهة اخرى جادت عليهم حكومة الولايات المتحدة بثنة وعشرة آلاف دولار ، لتحقيق ذلك المشروع الخطير .

الجمعية الكاثوليكية للمدارس المصرية ، التي انشأها سنة ١٩٤٠ الاب هنري عيروط المصري ، تدير في جميع أنحاء مصر مئة وخمسة وعشرين مدرسة ابتدائية مجانية ، وقد انفقت الجمعية على هذه المعاهد ١٨٠,٠٠٠ ليرة مصرية ونيقاً سنة ١٩٥٤ ، لا تكفي بتعليم نحو احد عشر الف ولد فقير وتهذيبهم ، بل توزع عليهم الثياب اللازمة ، وتعنى بصحتهم وبملاج امراضهم .

تكملة لعلمنا البهذيبي والتعليمي في المدارس الابتدائية والثانوية ، قد اتشأننا في اصقاع المصور جامعات عديدة ، ليخرج منها رجال الند بتؤونة وافرة من الفضيلة الراسخة والعلم الواسع ، تمكنهم من القيام بأجل الخدم للدين والوطن . دونكم جدول بعض تلك المعاهد التي اسنأها :

حول سنة ١٩٥٠ كان جامعتنا في لوفان (Louvain) من مدن بلجيكية ٧,٥٠٠ طالب بلجيكي والف اجني و٦٠٠ طالبة .

لنا في الولايات المتحدة ست جامعات تضم ٤٤٠٠٠ تلميذاً ونيقياً . عدد اساتذتها يفوق اربعة آلاف ، ومنهم نحو ٥٠٠ يسوعياً .
في مكسيكو عاصمة المكسيك انشأنا جامعة سنة ١٩٥٣ .
في البرازيل لنا جامعتان في ريو ده جانيرو ورسيفه (Recife) .
في بوكوتة عاصمة كولمبية لنا جامعة تضم الفتي طالب ونيقياً، ولهم ثلاثمئة معلم .
في الهند كان لنا سنة ١٩٥٠ ، ثلاث وعشرون من المدارس العليا ، وفيها عامنذ ٢٩٠٥٠٠ تلميذ .

كان لنا في الصين ، قبل نشأة الحكومة الشيوعية ، جامعتان احداهما في شان هاي والاخرى في تيان تسين (Tien Tsin) ، وفي كل منهما زهاء ١٤٢٠٠٠ تلميذ .
جامعتنا في توكيو نحو ١٤٦٠٠ طالب ، منهم زهاء ٥٠٠ كاثوليكسي ، واكثر البقية وثنيون .

جامعتنا في بيروت الفروع التالية : اللاهوت ، الفلسفة ، الحقوق ، العلوم السياسية ، الهندسة ، الطب العام ، طب الانسان ، فن التوليد ، فن التحريض ، العلوم الشرقية . تضم ١٥٨٠ طالباً و ١٦٦٩ استاذاً .

لم تكف بتدريس اللغات والآداب والعلوم ، بل انشأنا في أنحاء العالم مدارس اخرى عديدة ، غايتها الخاصة تأمين كسب المعاش بالشغل اليدوي . من اهمها مدارس الصناعات الصنرى ، التي عددها في اسبانية ثلاثون ، وهي تضم نحو ٦٤٥٠٠ تلميذ ، وكذلك مدرسة الطيران التي فتحتها سنة ١٩٢٧ الاب بركس Parks في الولايات المتحدة ، وقد تفتت في اربعة الايام السابقة سنة ١٩٤٩ اربعة وعشرين الف طيار .

من جهة اخرى قد أسنا عدة رهبانيات نسائية تهذيب البنات ، فاشربناها روحنا ودرّبناها على اسالينا . نخص بالذكر منها رهبانية قلمي يسوع ورسيم الاقدسين ، التي وضع اساسها في لبنان الابوان إستاف (Estève) الفرنسي وريكادونا (Riccadonna) الايطالي سنة ١٨٥٣ . هي اول رهبانية مطبات في بلاد الارز ، واكبر الرهبانيات النسائية في الشرق العربي ، فان عدد اعضائها يناهز خمسة في ايامنا . كانت غاية تأسيسها تهذيب البنات الفقيرات مجّاناً ، فانتشرت بسرعة غريبة في أنحاء لبنان وسورية ، حيث نمت في قرن واحد اربعمائة وستين مدرسة ،

كانت تضم سنة ١٩٥٢ نحو ١٠٠٢٠٠ من التلاميذ الصغار والتلميذات ، ومنهم زهاء ٦٣٥٠ مجانين . فضلاً عن التلميم تقوم اولئك الراهبات بخدمة عدة مستشفيات وغيرها من المشروعات الاجتماعية والخيرية .

اكثر المهاجرين يغادرون اوطانهم واقاربهم طمأ بالاحضر الزنآن ، فلا تُحمد همهم . شاق الاسفار الطويلة برأ ومجرأ ، واطارها العديدة ، ولا مرارة الغربية ، ولا درس لغات جديدة ، والتخلق بأخلاق شهب اجنبية ، ولو متوحشة . بيد ان الارسيدي الكاثوليك يقبلون طوعاً كل تلك التضحيات ، ليوزعوا بسخاء حاتمى كروز فقط باسمهم واموالهم على اقر الاقوام بالحيرات الدينية والعقيلة والمادية . فلا بدع يكون مؤسـ " الغر اقصى درجات الكمال في حب البشر ، قد يمث عدداً كبيراً من ابناؤه ، بصفة مرسين ، الى ابعد اقطار العالم ، مع فرط طول الاسفار وشدة اخطارها في القرن السادس عشر . قيل موته كانت رهبانيتها مؤلفة من ثمانية اقاليم فقط ، ومع ذلك كان ثلاثة منها في البرازيل والمهند واليابان . ازال عدد اليسوعيين يزيد في اربعة العصور الاخيرة ، فتكاثر المرسلون منهم بنسبة هذه الزيادة .

سنة ١٩٥٤ كان لنا ٥٤٥٦٣ مرسل ، وهو اكبر عدد في الرهبانيات الرجائية . اولئك الرهبان يخدمون ٥٦ رسالة ، منها تسع وعشرون في آسية ، سبع عشرة في اميركة ، تسع في افريقية ، وواحدة في اوقيانية . في رأس سنة ١٩٢٧ كان لنا ، في بلاد الرسالات ٣٤٧٢٩ مدرسة ابتدائية ، فيها ١٨٠٠٠٠ تلميذ ونيّف ، و ٨١ مدرسة صناعية ، فيها ٣٤٧٠٠ تلميذ ونيّف ، و ٣٣٥ مدرسة ثانوية تضم ٥٣٤٠٠٠ طالباً ونيّفاً ، وعشر كليات تتقف ٤١٠٠ ، طالباً ونيّفاً . كل ذلك برض من عد ، فقد نُشرت مئات الكتب على حياة المرسلين اليسوعيين واهلهم ، على كل حال يلقى هنا ذكر شي . يسير من ما ترجم . في رسالة پاراگوياي (Paraguay) في اميركة الجنوبية ، قد بلغ مرسلونا في القرن السابع عشر من النجاح الفائت في تمدن اهاليها المتوحشين ، وتنظيم جميع شؤونهم ، ما قضى منه العجب اقطاب السياسيين ونوابغ العلوم الاجتماعية . سنة ١٩٥٤ أقيم الاحتفال بالثوية الرابعة لتأسيس مدينة سان باولو في البرازيل . فنصبت الحكومة في افسح ميادين هذه البلدة تمثالاً جباراً للاب يوسف ده

انكياتا (de Ancheta) (١٥١٧) ناشر التمدين في تلك البلاد. على احد جوانب قاعدة التثال نحت يمثله مصالحاً للقبائل المتعادية .

سنة ١٩٥٥ اقيست في مدينة امباتو (Ambato) ، في جمهورية إكوادور، حفلات باهرة ، تصدرها رئيس الجمهورية ، تذكراً لمرور مئتي عام على تأسيس الاب موجيري (Maugeri) الايطالي ، في تلك البلدة ، المطبعة الاولى من مطابع ذلك القطر . بعد ما بقيت قبائل اوريزكون (Oregon) المتوحشة ، الساكنة في الولايات المتحدة ، خمسة عشر عاماً تحت رعاية المرسلين اليسوعيين ، زارها موظفو الحكومة سنة ١٨٥٤ ، فظنوا في تقاريرهم الرسمية تقدمها غير المنتظر في التفصيلة والاجتهاد ، وترقيها المدهش في الزراعة .

الاب يوسف كاتلدو (Cataldo) كان في مقدمة الساعين لتصالح الهنود المتوحشين مع البيض ، في غرب الولايات المتحدة ، وهو - من مؤسسي مدينة سبوكين (Spokane) وقد انشأ فيها جامعة .

في اثناء الحرب الناشبة بين الصين واليابان سنة ١٩٣٧ رأى الاب ده بزنج (de Besange) الجيشين المتحاربين يبتمان المدن ، والجنود اليابانيين يقتلون الشيوخ والنساء والاطفال ، فحصل بعد جهود جبارة ، على وعد الجيشين بعدم الحاق اذى ضرر بمنطقة واقعة في جنوب مدينة شان هاي ، فتكون مأوى اميناً لثير المحاربين من اهل الصين . وقد بلغ عدد اللاجئين اليها ثلاثة الف ، ومن العجب العجائب ان اليسوعي المذكور قد استطاع ، بتوازره المحسنين ، ايوا ، اولئك النساء . وتغذيتهم .

الاب قسطنطين ليغس (١٨٩٣) البلجيكي كان في الهند مواظباً على المدافمة الجريئة عن حقوق الفقراء ، حتى في المحاكم .

في عدة اقطار من افريقية واميركا كانت لمرسلينا حصة خطيرة في محاربة النخاسة .

من احدث رسالتنا رسالة ديامنينو (Diamantino) في البرازيل ، التي يكنها بضعة آلاف من الهنود المتوحشين . قد انشأها سنة ١٩٣٠ ، وفتحنا فيها اربع مدارس ابتدائية ، حديقة اطفال ، ثلاث مدارس لتعليم الاشغال البيتية ، مدرسة زراعة ، مستشفى ، ثلاثة مستوصفات وملجأين للفقراء المسنين . منذ تأسيس

تلك الرسالة ، قد خطا اهلها خطوة كبيرة في سبيل التمدن ، وكثرت غلات اراضيهم البالغة مساحتها نحو ثلاثئة الف كياو متر مربع .

لا يُعنى اليسوعيون في بلادهم وفي الرسائل بتقديس النفوس وتثقيف العقول فقط ، بل يتدبرون ايضاً بكل الوسائط ، لتحسين احوال المجتمع المادية ، على الاخص في خدمة العيال والمرضى وذوي العاهات ؛ فلا مندوحة عن ايراد بعض الامثلة الجديدة على مناسبتهم في هذا الميدان ، علاوة على ما سبق ذكره .

مؤسسة العمل الشعبي - واسمها الفرنسي (Action Populaire) - قد انشأها في فرنسا الاب هنري لروا (Leroy) سنة ١٩٠٣ ، وهي من اعظم مؤسسات العالم الباذلة اقصى الجهد لتحسين احوال الناس الاجتماعية والاقتصادية ، ولا سيما احوال الشعب العامل . لا تزال تجمع الوثائق والمطبوعات المختصة بقايتها ، وتنظم المحاضرات والمؤتمرات ، وتنتشر الكتب والمجلات ، لاصابة هدفها السامي .

الاب فليكس فولپت (Volpette) (١٩٢٤) الفرنسي قضى شطراً كبيراً من حياته الرهبانية في تحسين احوال العيال المادية والادبية ، على الاخص بتسبيله لهم اقتناء بيوت صغيرة ، كل منها محاط بمجديقة ، في ضواحي المدن . بعد موته جمع آلاف منهم المال اللازم لنصب تمثال يخلد اجلالهم وشكرهم له .

مطبعتنا في بيروت قد سائر مطابع لبنان في دفع اجر عال ائعمالها ، وفي زيادته على حسب طول خدمتهم لها وتكاثر اولادهم ، وهي تقدم لهم في امراضهم علاج الاطباء . بشن زهيد .

قد عُني رهباننا بالمرضى ، على اختلاف اديانهم ، عناية خاصة ، نبلت اقصى حدود التضحية حين انتشار الوبئة . حسبنا برهاناً على ذلك ان ١١٩٠ منهم قد ماتوا ضحايا خدمتهم للمرضى من سنة ١٥٥٦ الى ١٦٥٧ ، وان عدداً كبيراً منهم قد نالوا من عدة حكومات اعلى الاوسمة ، مكافأة على بطولتهم في خدمة آلاف الجرحى ، إبان الحربين العالميتين الاخيرتين .

حول سنة ١٩٣٣ انتشر وباء الكوليرة انتشاراً هائلاً في الصين ، فأتت الابوان الارلنديان سول (Saul) وماك كلو (Mac Calough) بذلك المرض وهما يخدمان المصابين به .

يقوم اليسوعيون بخدمة آلاف من البرص في جزيرة كليون (Culion) ، من

الجزائر الفيلبية ، وقد حصدتها حكومة الولايات المتحدة بكتناهم . سنة ١٩٣٣ .
سافر من نيويورك الى تلك الجزيرة ثلاثة عشر يسوعياً ، لوقف بقية حياتهم على
خدمة اولئك الاشقياء . البالغ عددهم نحو ستة آلاف سنة ١٩٤٢ .

الاب حنا بيزيم (Beyzym) (١٩١٢ +) البولوني قد انشأ مستشفى للبرص في
مدعسكر وخدمهم فيه ، فاصابته المدوي ومات ضحية بطولته .

كان لنا في بلاد الرسالات ، في رأس سنة ١٩٢٧ ، ٢٧ مستشفى ، عولج
فيها ١٥٠٠٠ مريض وثيف ، و ٣١٢ مستوصف وزع فيها اكثر من ١٤١٢٠٠٠
دواء ، و ١١٢ ميم فيها ١١٠٦٠ يتيم .

سنة ١٩٣٩ زادت تلك الاعداد زيادة كبيرة ، فصارت المستشفيات والمآوي
سبعين ، فضلاً عن ١٥ مستشفى للبرص ، واصبحت المستوصفات ٣٤٩ ، والميام ١٥٥ .

قد بلغت الآن منتهى مقالتي ، التي حاولت اذهال القراء عن طولها ،
بجملها على شبه فيام سينائي ، متنوع الالوان والمنشاهد ، يصور لهم على جناح
السرعة مراحل ترقى نفس اغناطيوس ده لويولا ، من قصر مهواة الرذيلة الى اوج
القداسة ، ونجاحه العجيب ، الدائم طول حياته واربعمئة سنة بعد مماته ، في تجنيد
آلاف مزلفة من صفوة رجال كل اقطار العالم ، تحت راية رهبانته ، ليدركوا
في القداسة والطمع شأواً بعيداً ، ويبدلوا ذواتهم الى النسوة الاخيرة ، بشجاعة
الابطال ونباتهم ، لخدمة الله تعالى والبشر اولاده واخوتهم ، في اوطانهم وفي
بلاد الرسالات ، بالوعظ والتهديب والتعليم ، وبنهرها من انواع الرسائط المؤدية
الى تحسين حال المجتمع الروحية والعقلية والمادية .

اغناطيوس الحطاطي قد توب الى الله توبةً نصوحاً ، فحوّله مولاه الففور الى
تديس عظيم ووالد ربرات من الرهبان القديسين ، وجعلهم بين يديه القديرتين ،
اللتين اوجدتا الكون من الدم ، ادوات افاض بها على ملايين البشر وابلاً من
نعمه ، تزجر دوام إغداقه الى آخر الاجيال . ولا بدع بذلك ، فان الكياوي
الفرنسي هنري مراسان (Moisan) (١٩٠٧ +) قد استطاع ان يحول قطعة فحم
دقيقة سرداء الى الماسة ساطعة ، وشأن ما بين قدرة الخالق وعجز خليقته !